فكرت سارا في نفسها: «هذه الفتاة أسوأ مني حالًا.»

وبينما دنت سارا من الفتاة الصغيرة، حولت الفتاة وجهها بعيدًا عنها، وكأن سارا ستصرخ في وجهها أو ستزيحها من طريقها مثلما يفعل الباقون.

سألتها سارا: «هل أنتِ جائعة؟»

رفعت الفتاة وجهها في ذهول، وأجابت: «أجل، أنا جائعة.» وأخبرت سارا أنها لم تتناول الطعام طيلة الأيام الماضية.

ولم تصدق سارا نفسها في أنها تنوي أن تعطي من طعامها للفتاة الصغيرة، لكنها فكرت في نفسها: «ماذا تفعل الأميرة في موقف مماثل؟»

وعندئذ مدت يدها في الكيس، وأخرجت واحدة من الكعك، وأعطتها للفتاة الأخرى التي جلست منتصبة وخطفتها من يد سارا وحشرتها في فمها لتلتهمها في قضمة واحدة كبيرة كالوحوش الضارية.

سمعت سارا الفتاة وهي تقول في استمتاع جمّ: «يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!»

وبيدين مرتجفتين أخرجت سارا ثلاث كعكات أخرى وأعطتها للفتاة لتشاهدها وهي تلتهمها التهامًا بنفس الطريقة.

شعرت سارا وكأنها سيُغشى عليها عندما أعطت الفتاة الكعكة الخامسة، لكنها تشبثت بكعكتها الوحيدة الأخيرة، وتمكنت من أن تتماسك وتستدير وتسير بعيدًا.

وكانت شحَّاذة لندن الصغيرة لا تزال وراءها تزدرد الكعك. وكانت تنوي في خضم التهامها للطعام أن تشكر سارا، لكن سارا لم تكترث لهذا.

في تلك الأثناء لم تصدق المرأة، التي كانت تراقب الموقف برمته من نافذة المتجر، ما يحدث أمام عينيها.

تعجبت المرأة: «مستحيل! لقد أعطت الفتاة كعكها لتلك الشحاذة الصغيرة! مع أنها تتضور جوعًا هي الأخرى! كان هذا واضحًا وضوح الشمس في عينيها.»

ثم فتحت المرأة باب متجرها، ودعت الشحَّاذة إلى المتجر وسألتها: «هل أعطتكِ هذه الفتاة كعكها؟»

أومأت الشحَّاذة الصغيرة.

– «كم كعكة؟»

– «خمس.»

فالتفتت المرأة مرة أخرى إلى الطريق حيث كانت سارا تقف محزونة الفؤاد.

وقالت: «ليتها ما اختفت سريعًا، ليتني أعطيتها دستة كاملة من الكعك!»

ثم التفتت إلى الفتاة، وقالت لها: «هل ما زلت جائعة؟»

أجابتها الفتاة: «جائعة كما الحال دائمًا.»

قالت المرأة: «حسنًا، تعالي إلى هنا، واستدفئي.» ومع أن المرأة نفسها كانت عاملة مسكينة، فقد عرضت أن تساعد الفتاة إكرامًا لسارا. قالت المرأة: «متى شعرتِ بالبرد والجوع، يمكنك أن تدخلي إلى هنا، أسمعتِ ما قلته لكِ؟ هذا أقل ما يمكن فعله من أجل تلك الفتاة.»

كانت سارا تمسك بإحكام بكعكتها الباردة عندما أوشكت على بلوغ المدرسة، ولكنها توقفت لحظة أمام منزل أسرة لارج؛ إذ كان الباب الأمامي مفتوحًا وكانت الحقائب تُحمل إلى العربة فثمة شخص مسافر في رحلة.

قبل السيد لارج زوجته في الممر ثم هبط درجات السلم متجهًا إلى العربة التي كانت في انتظاره.

قال له أحد أولاده بصوت عال من بعيد: «هل ستكون موسكو مكسوة بالجليد؟ هل ستقابل القيصر؟»

رد عليه السيد لارج وهو يضحك ضحكة ودودة: «سأكتب لك وأخبرك بكل شيء عن موسكو. طاب مساؤكم يا أحبابي! أترككم في رعاية الله!»

في تلك اللحظة ظهر جاي كلارنس في الممر وقال بصوت مرتفع: «إذا عثرت على الفتاة الصغيرة، فلترسل لها محبتنا!»

استقل السيد لارج عربته، وانغلق الباب الأمامي.

فكرت سارا في داخلها: «تُرى من تكون هذه الفتاة الصغيرة التي سيذهب للبحث عنها بهذه الجدية.»

جرَّت سلَّتها الثقيلة، ثم دخلت، وأغلقت الباب وراءها.

وبالطبع لم تكن لديها أدنى فكرة عن أنها هي نفسها حل لغز ابنة كابتن كرو المفقودة.

الفصل العاشر

المأدبة العظيمة

عندما وصلت سارا إلى المنزل هذا المساء، كانت منهكة القوى تمامًا، وقد عنَّفتها الآنسة منشن لأنها عادت متأخرة من أداء المهام التي كلَّفتها بها؛ إذ لم تكن تبالي بأن الشوارع مبللة وموحلة، وبأنه يصعب على سارا أن تسير بسرعة بحذائها البالي. وكانت الطاهية متكدرة المزاج أيضًا، فصبت جام غضبها عليها أيضًا.

طلبت منها سارا في حياء وهي تضع المشتريات التي أحضرتها لها على الطاولة: «أيمكنني أن أتناول شيئًا؟»

فصرخت فيها الطاهية كعادتها: «انتهى العشاء.»

ترجتها سارا: «أرجوكِ، أنا جائعة للغاية.» وقد احتفظت بنبرة صوتها منخفضة خشية أن يرتجف صوتها.

فقالت الطاهية: «ثمة بعض الخبز في حجرة المؤن، وهذا هو كل ما ستحصلين عليه.»

ومع أن الخبز كان قديمًا ويابسًا وجافًا، التهمته سارا التهامًا، وقالت في داخلها: «أنا آسفة يا ملكيسيديك، فلن أترك لك فتاتة واحدة الليلة!»

وكان دائمًا يصعب عليها أن ترتقي درجات السلم المؤدي إلى العلية، لكنها كانت في غاية الإنهاك الليلة حتى إن درجات السلم بدت بلا نهاية، فاضطرت أن تتوقف أكثر من مرة لتستريح.

وأخيرًا عندما بلغت درجات السلم العليا، رأت بصيصًا من الضوء يتسلل من تحت باب غرفتها، فظنتها إرمنجارد.

لكنها لم تكن في حالة مزاجية تسمح لها بصحبة أحد، غير أنها قالت لنفسها إنها إن كانت تسكن إحدى القلاع، وإرمنجارد تسكن قلعة أخرى، وجاءت لزيارتها فلن

تتأفف عندما تسمع صوت الأبواق من وراء الجسر المتحرك وتقول: «أرجوكِ، الوقت ليس مناسبًا.» لن تفعل سارا هذا وإنما ستنزل لاستقبالها، وعندئذ ستقيم مأدبة في غرفة الطعام، ثم تدعو المطربين ليصدحوا بالأغاني ويرووا القصص …

حسنًا، لا توجد مأدبة ولا مطربون يغنون ويعزفون، لكن الأميرة سارا مستعدة لتحيي إرمنجارد عندما فتحت باب غرفتها. كانت إرمنجارد، التي ألفت وجود ملكيسيديك لكن ما زال يتملكها شيء من الخوف منه، تجلس في منتصف الفراش حيث لا يستطيع أن يقفز عليها.

همست إرمنجارد: «ذهبت الآنسة أميليا لتمضي الليل مع عمتها العجوز، ولن يتفقدنا أحد قط أثناء الليل، لذا بمقدوري أن أمكث هنا حتى الصباح إذا أردتُ ذلك!»

قالت سارا في نفسها: «لكن لِمَ تريدين ذلك؟»

قالت إرمنجارد: «تبدين في غاية التعب يا سارا؛ تبدين متعبة وشاحبة.»

قالت سارا وهي ترتمي على مسند القدمين المائل: «فعلًا أنا متعبة للغاية.»

قالت إرمنجارد في حسد: «على الأقل أنتِ نحيفة.»

شعرت سارا وكأنها تود أن تهز إرمنجارد بقوة وتقول لها لو أن الآنسة منشن جعلتها تتضور جوعًا مثلها، لصارت هي أيضًا نحيفة. لكن سارا أمسكت نفسها، وقالت في شجاعة: «لطالما كنت دائمًا طفلة نحيفة.»

وعندئذ فقط سمعت الفتاتان صوت ضجيج على درجات السلم في الأسفل؛ كان صوت الآنسة منشن الغاضب وهي تعنِّف بيكي.

همست إرمنجارد وقد تملكها الفزع: «هل ستأتي إلى هنا؟»

أجابت سارا: «لا أظن ذلك، لكن لا تصدري أي صوت تحسبًا لذلك!»

نادرًا ما تصعد الآنسة منشن إلى الطابق الأخير، لكن بدا أنها تفعل ذلك الآن وتجر بيكي معها.

سمعتاها تقول: «يا لكِ من لصَّة كاذبة! لقد أخبرتني الطاهية أن ثمة أشياء تُفقد من المطبخ على الدوام!»

ردت بيكي باكية: «لست أنا يا سيدتي من فعل ذلك. كنت جائعة للغاية، لكن لست أنا، لم أفعل هذا قط!»

صرخت الآنسة منشن: «كفاكِ كذبًا، ينبغي أن أطلب الشرطة وأزج بكِ في السجن! لقد سرقتِ نصف شطيرة لحم!»

سمعت سارا وإرمنجارد صوت صفعة قوية، فعلمتا أنها صفعت بيكي على وجهها، وعندئذٍ سمعتا صوت باب غرفة بيكي يُغلق، وبدأت الآنسة منشن تعود أدراجها. كانت بيكي تبكي بصوت منخفض على وسادتها.

ارتجفت سارا، وصرخت: «يا لها من طاهية بغيضة! إنها هي من يسلب الأشياء ثم تشير بإصبع الاتهام إلى بيكي؛ بيكي التي تتضور جوعًا حتى إنها تلتقط كسرات الخبز من سلة المهملات!» وضعت سارا يديها على وجهها وأجهشت في بكاء شديد.

حملقت إرمنجارد في صديقتها، ثم طرأت فكرة على ذهنها البليد فقالت في خجل: «سارا، لا أود أن أكون وقحة، لكن هل أنتِ جائعة؟»

كان هذا كثيرًا على أن تتحمله سارا، فانفجرت فيها: «ماذا تظنين يا إرمنجارد؟ أجل، أنا جائعة، بل أتضور جوعًا حتى إنني أكاد ألتهمك!»

التقطت إرمنجارد أنفاسها: «أشعر أنني حمقاء للغاية، لكنني لم أعلم هذا قط.»

ضحكت سارا وهي لا تزال تبكي: «لم أشأ أن أعلمك بهذا، فهذا سيجعلني أبدو شحَّاذة.»

صاحت إرمنجارد وهي تقفز قفزة خفيفة من شدة الحماسة التي غمرتها: «سارا!» وقد بدأت الأفكار تنهال على ذهنها بسرعة الآن، وكانت هذه فكرة رائعة بحق. «أرسلت لي عمتي ظهر اليوم صندوقًا يعج بكل ما لذّ وطاب؛ فهو يحتوي على الكعك، وشطائر اللحم، والتورتة المحشوة بالمربى، والكعك المحلى، وعصير البرتقال والعنب الأحمر، والتين، والشوكولاتة ...»

قاطعتها سارا: «كفى!» إذ بدأَتْ تشعر بالدوار.

قالت إرمنجارد: «سأتسلل إلى غرفتي لأحضرها إلى هنا ثم نأكل معًا، اتفقنا؟»

قالت سارا: «آه يا إرمنجارد، دائمًا يتحقق الخيال، أليس كذلك؟ ففي الوقت الذي تظنين فيه أنك لا تستطيعين المضي قدمًا وأن الحياة أصبحت بغيضة، يحدث شيء سعيد، ولا يبلغ السوء مداه أبدًا. يمكننا أن نتخيل أنه حفل عشاء! هل يمكنني أن أدعو السجينة في الزنزانة المجاورة؟»

وافقت إرمنجارد، وفي الوقت الذي ذهبت فيه لتحضر وليمة العشاء، طرقت سارا على الجدار طرقات الاستدعاء. وفيما كانت سارا بانتظار عودتها، أخذت تنظر حولها في أرجاء العلية بنظرة جديدة مليئة بالحماسة.

قالت سارا: «أنا في حاجة لمساعدتك يا بيكي كي نعد الطاولة من أجل مأدبة عظيمة!»

ولمّا وجدت سارا وشاح إرمنجارد الذي كان قد سقط على الأرض، أخذته وغطت به طاولة قديمة. أوه! يا للروعة، لقد أصبح هناك منضدة عشاء جميلة مغطاة بقماش أحمر فاره. وفي صندوق قديم بالغرفة، عثرت سارا على العديد من المناديل البيضاء القديمة، فوضعتها في نظام على مفرش المائدة الأحمر. ثم تخيَّلت سارا وبيكي وجود أطباق ذهبية عليها مناديل أنيقة.

عثرت بيكي أيضًا وسط أغراضها القديمة على قبعة صيفية مزينة بإكليل من الزهور الذابلة، فوضعتها سارا في منتصف الطاولة لتزينها بها. سألتها سارا: «أليست ألوانها خلابة؟ هل شممت من قبل مثل هذا العبير الذكي؟»

وفي تلك اللحظة، اندفعت إرمنجارد إلى داخل الغرفة منقطعة الأنفاس من حمل سلتها عبر السلم الطويل، فانبهرت لدى رؤيتها المائدة المعدَّة، وقالت: «يا إلهي! يا لها من قاعة احتفال رائعة!» ابتسمت سارا إذ لم تنس إرمنجارد الدروس التي تلقتها حول كيفية التخيل.

تنهدت بيكي: «تشبه مائدة الملكة.»

فقالت إرمنجارد لسارا: «ستكونين أنتِ الأميرة، وتجلسين عند رأس المائدة.»

لكن لم تكد الفتيات يتخذن مقاعدهن حول المائدة أو حتى تلمس أياديهن كعكة واحدة، حتى تجمد ثلاثتهن لدى سماعهن صوت شخص يرتقي درجات السلم غاضبًا، وبالطبع لم يختلفن حول هذا الشخص.

دفعت الآنسة منشن الباب بقبضة واحدة من يدها، فظهر أمامها ثلاثة وجوه مرتعدة.

قالت الآنسة منشن: «كنت أشك في حدوث شيء من هذا القبيل، لكن لم يخطر لي قط أنه يُستخف بي إلى هذه الدرجة. لقد أخبرتني لافينيا بالحقيقة!»

أجهشت إرمنجارد في البكاء، وتوسلت إليها: «أرجوكِ لا تعاقبي سارا أو بيكي، فالخطأ خطأي وحدي. لقد أرسلت لي عمتي هذا الصندوق، وكنا نقيم حفلًا فحسب ...»

قالت الآنسة منشن: «بحيث تكون الأميرة سارا عند رأس الطاولة. أنا على يقين أن هذا من تدبيرك يا سارا؛ فإرمنجارد لا تتمتع بالذكاء الكافي لتفكر في مثل هذا الأمر.»

التفتت الآنسة منشن، وحدَّقت في المائدة التي تحولت بفعل نظرتها إلى مائدة كئيبة ومثيرة للشفقة مرة أخرى، ثم قالت: «لا شك أنكِ من أعد كل هذه الحثالة.»

عندما أومأت سارا بالإيجاب، رفعت الآنسة منشن ذراعها، وبدفعة واحدة قوية وحقيرة، أزاحت كل الأطباق والزهور إلى سلة إرمنجارد، ثم أخبرت سارا: «لا إفطار ولا غداء ولا عشاء لكِ الغد.»

أجابت سارا في وهن شديد: «لكنني لم أحصل على أي غداء أو عشاء اليوم.»

ردت الآنسة منشن: «هذا هو غاية المراد!»

ثم التفتت إلى إرمنجارد، وقالت: «ما هذا الذي فعلتيه يا إرمنجارد، ماذا سيقول والدك إذا عرف أين كنتِ الليلة؟»

وفيما كانت الآنسة منشن تهم بالرحيل، استرعى انتباهها شيء ما على وجه سارا؛ ألا وهو نفس النظرة التي تثير ثائرتها دائمًا، واليوم بدت هذه النظرة مزعجة للغاية.

فسألتها: «لمَ تحدقين فيّ هكذا؟ فيم تفكرين الآن؟»

أجابتها سارا: «كنت أتسأل فحسب، ماذا كان سيقول والدي إذا عرف أين كنتُ الليلة؟»

فقدت الآنسة منشن أعصابها مرة أخرى، وقالت: «يا لكِ من فتاة صفيقة! سأتركك تتساءلين كيفما شئتِ.» وبعدما دفعت سلة الطعام إلى يد إرمنجارد، جرتها من مؤخرة عنقها، وتُركت سارا وحدها تمامًا في الظلام.

تركها الجميع باستثناء وجه رام داس الداكن اللون، الذي كان يقف على السطح خارج نافذة سارا ويراقب ما يحدث في غضب. وكان قد اقترب من نافذتها لأنه سمع صوت النقاش المحتدم عبر الجدران، وأراد أن يتأكد من أن صديقته الصغيرة بخير.

ورأى أن سارا لم تكن بخير مطلقًا؛ إذ انكمشت في فراشها تبكي حتى غلبها النعاس. ليت بوسعه هو وكاريسفورد أن يفعلا شيئًا حيال ذلك، ولعلَّ حالتها أن تتحسن بحلول الغد.

الفصل الحادي عشر

السحر

لم تعلم سارا كم من الوقت استغرقت في سباتها، لكن عندما أخذت تفيق بالتدريج في صباح اليوم التالي، وعيناها لا تزالان مغمضتين، شعرت بأنها في حاجة إلى المزيد من النوم. وكانت الآنسة منشن تتركها تنام ساعة إضافية يوم الأحد.

أو لعلَّها ما زالت غارقة في نومها، وتحلم بالفعل، وهل من طريقة بديلة لتشعرها بالدفء والراحة؟ عندما تمد يدها، هل من طريقة تشعرها بأنها تتدثر في لحاف دافئ سوى الأحلام؟ وكيف لها أن تسمع الطقطقة الخفيفة لألسنة اللهب في مدفأتها الصدئة القديمة سوى في الأحلام؟

بعد قليل فتحت عينيها، واستمر الحلم كالمعجزة. وفضلًا عن كل الأشياء التي تخيلتها — من السجادة الهندية الناعمة الزرقاء السميكة والأريكة الناعمة الوثيرة ذات الوسادات والسجادة المصنوعة من جلد النمر أمام المدفأة — كانت هناك طاولة صغيرة قابلة للطي. وكانت مغطاة بمفرش أبيض وتعلوها وليمة صغيرة ساخنة شهية من الحساء، والسندويتشات، والخبز المحمص، والفطائر.

وجدت سارا نفسها مستلقية في فراش جديد، وفوقها بطانيات دافئة ناعمة. كيف حدث هذا؟ لم يكن لديها أي فكرة. وعند طرف فراشها كان هناك ثوب حريري دافئ وزوج من الأخفاف المبطنة. والأروع من كل هذا، وجدت سارا بجانب المقعد بالقرب من المدفأة مجموعة من الكتب الجميلة.

وفيما أخذت سارا تنظر حولها، رأت مصابيح ملونة باللون الوردي، ولوحات وزينة على الجدران، وسجادًا ووسادات ملونة، وورودًا في مزهريات جميلة، وكمًّا هائلًا من الأشياء الأخرى الرائعة.

قالت سارا لاهثة: «لمَ لا يتلاشى هذا الحلم؟ لم يراودني مثل هذا الحلم من قبل؟»

قفزت سارا من فراشها، وهبَّت إلى أرجاء الغرفة تتحسس كل شيء، حتى إنها قربت يدها قدر استطاعتها من نيران المدفأة، فارتدَّت سريعًا إلى الوراء، وصرخت: «إنها ساخنة!» ارتدَت سارا الثوب وأخذت تمرره على وجنتها وصرخت أيضًا: «إنه دافئ وناعم للغاية!» ثم تذوقت بعضًا من الطعام الشهي الذي وُضع لها على الطاولة، وصاحت: «إنه لذيذ للغاية! وكل هذا حقيقي! أنا لا أحلم!»

وفجأة رأت سارا ورقة صغيرة موضوعة فوق الكتب مكتوب فيها: «من صديق إلى فتاة العلية.»

وما إن قرأت سارا هذه الكلمات، حتى صدر عنها رد فعل غريب؛ لقد نكَّست رأسها على الورقة، وأجهشت في البكاء، وقالت: «ثمة شخص يكترث لأمري. لديّ صديق.»

ولك أن تتخيل كيف كان بقية صباح سارا؛ على الفور دقت سارا على جدار بيكي دقات الاستدعاء، وأمضت الفتاتان الساعات المعدودات التالية تستدفئان أمام نيران المدفأة المضطرمة. في بادئ الأمر ظلت بيكي عاجزة عن التكلم من شدة الخوف، لكن ما إن تغلبت على شكوكها، حتى التهمت الفتاتان الطعام. والأهم من ذلك كله، أن عطف صديق سارا «السحري» الخفي بث السعادة في قلبيهما. وعلى نحو ما تراجع خوفهما من الآنسة منشن إلى مؤخرة عقليهما. وقررت سارا أن تحفظ العجائب التي حدثت لهما في طي الكتمان قدر المستطاع.

وبالطبع ستضطران أن تنزلا بعد قليل إلى أسفل من أجل العمل، لكن في هذا اليوم، فعلت الفتاتان هذا بكل شجاعة وقوة، وقد احمرت وجناتهما واشتدَّت خطواتهما.

وكان كل فرد في المدرسة قد سمع بما حدث الليلة المنصرمة، لذا كان من المتوقع أن تنزل سارا بوجه ذليل خجِل. لكن على العكس من ذلك، كانت تحلق في كل الأرجاء تعلوها سيماء الفخامة والهيبة أكثر من المعتاد.

همست لافينيا إلى جيسي: «إنها لا تبدو جائعة.» وكانت لافينيا قد سمعت بالعقاب الذي حلّ بسارا ولم تشعر بذرة من الأسف لأنها وشت بها. أردفت لافينيا: «لعلها تتظاهر بأنها تناولت طعامًا جيدًا!»

حذَّرتها الآنسة منشن بصرامة: «تذكري أنكِ منقوم عليكِ. وقاحة منكِ أن تتبختري في كل الأرجاء مزهوة بنفسك وكأن ثروة قد هبطت عليك من السماء!»

كان الطقس في هذا اليوم أشد ضراوة من اليوم الأخير الذي خرجت فيه سارا لأداء مهامها، إذ كان أشد رطوبة وبرودة وموحلًا أكثر من ذي قبل، وكانت سلتها أثقل،

والطاهية أكثر حدة وأشد غضبًا. لكن سارا استطاعت على نحو ما أن تتحمل كل هذا، وفكرت في أنه حتى لو تلاشى السحر من غرفتها عندما تعود إليها في هذه الليلة، فإنها سوف تظل دائمًا شاكرة ومدركة أن ذلك قد أنقذ حياتها.

عندما فتحت سارا باب غرفتها هذه الليلة، أخذ قلبها يخفق بشدة من هول المفاجأة، فأغلقت الباب وراءها، والتصقت به، وأخذت تدير نظرها من جانب إلى آخر؛ فما زال السحر موجودًا، ليس هذا فحسب، بل أحيا الغرفة أيضًا من جديد؛ إذ كانت النيران المُضرمة حديثًا تتوهج بشكل أكثر بهجة للعيون من قبل، وعجَّت الغرفة بالمزيد من الحلل الأنيقة والصور والوسادات. والأروع من كل هذا، كان بانتظارها عشاء شهي ساخن على الطاولة، وقد أُزيلت كل أطباق الإفطار المتسخة.

وعندما وصلت بيكي انفجرت في الضحك والقهقهة كأنها فقدت عقلها. وجلست الفتاتان لتناول العشاء كأنهما أميرتين.

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، تعود سارا كل يوم إلى غرفتها، لتجد شيئًا جديدًا قد أُضيف إليها. وعندما لم يعد هناك موضع قدم في غرفة سارا، تحول السحر ليفيض في غرفة بيكي. سألت سارا نفسها: «هل هذه غرفتي؟ وهل أنا تلك الفتاة الصغيرة ذات الثياب الرثَّة التي تعاني البرودة؟ لا بد أنني أعيش قصة خيالية؟»

لم يتغير أي شخص في معاملته الدنيئة للفتاتين، لكن هذا لم يعد يهم؛ فقد دبت الحياة مرة أخرى في وجناتهما التي بدأت تمتلئ. وبعد وقت قليل لم تعد أعينهما كبيرة على حجم وجهيهما.

قالت الآنسة أميليا للآنسة منشن: «تبدو كل من سارا كرو وبيكي في حالة جيدة بعد أن كانتا هزيلتين من قبل.»

هاجمتها الآنسة منشن في محاولة للتغطية على أفعالها الشنيعة: «ولم لا تبدوان كذلك؟! إنهما يُعاملان أحسن معاملة.»

أحيانًا كانت سارا تفكر في أن تختبئ وتمسك بصديقها الخفي أثناء قيامه بذلك، لكن هذا قد يفسد السحر. ومع ذلك أرادت أن تشكر وليّ نعمتها، لذا تركت له ورقة في الصباح التالي إلى جانب أطباق العشاء، ووقعتها باسم: «فتاة العلية.» وفي الصباح التالي اختفت الورقة مع أطباق العشاء.

الفصل الثاني عشر

استعادة الثروة

في صبيحة أحد الأيام وفيما كانت سارا وبيكي تستمتعان بوليمة الصباح السرية، إذ بصوت خربشة واهنة على النافذة، تلاها ظهور وجه القرد الذي رفع زجاج النافذة كما فعل في المرة السابقة، ودخل إلى غرفة سارا.

عندما صرخت بيكي رعبًا، هدأت سارا من روعها: «لا تخافي، فما هو إلا قرد صغير لطيف من المنزل المجاور. ألا يبدو كالرضيع الصغير؟»

قالت بيكي وهي تقترب منه بتؤدة: «رضيع قبيح للغاية. ماذا ستفعلين به؟»

أجابت سارا: «حسنًا، أعرف أن رام داس والرجل الهندي سيقلقان عليه كثيرًا عندما يكتشفان غيابه. لذا لا بد أن أعيده إليهما في الحال.»

في المنزل المجاور، لم يكن أحد قد لاحظ غياب القرد بعد؛ إذ كانوا مشغولين جميعًا بالسيد كارميشيل الذي عاد لتوه من موسكو حاملًا أخبارًا سيئة؛ إذ لم يستطع العثور على ابنة كابتن كرو الصغيرة. وهكذا فإن السيد كاريسفورد — الذي أدخلت مهمة رام داس السرية في المنزل المجاور السعادة إلى قلبه فترة من الزمن — أصبح على الفور حزينًا وبائسًا للغاية.

قال كارميشيل بصوته المبهج: «لا تيأس، سنعثر عليها بكل تأكيد.»

قطع حوارهما الإعلان عن قدوم زائرة، وأخبرهما رام داس أن الطفلة التي تقطن المنزل المجاور جاءت كي تعيد القرد الذي قفز إلى غرفتها العلوية.

اقترح رام داس على سيده: «رأيت أنه قد يسرك أن تراها وتتحدث إليها.»

قصَّ السيد كاريسفورد في عجالة على السيد كارميشيل تفاصيل خطته هو ورام داس السحرية لمساعدة هذه الفتاة التي تقطن المنزل المجاور، فصاح أطفال السيد كارميشيل في ابتهاج لدى سماعهم القصة.

عندئذٍ أُدخلت سارا التي انحنت انحناءة احترام لدى دخولها.

قالت سارا بصوتها العذب الجميل للرجل الهندي: «فرّ قردك مرة ثانية، وخشيت أن تقلق عليه. هل أسلمه إلى الخادم الهندي؟»

تعجبت نورا: «وكيف عرفتِ أنه خادم هندي؟»

أجابت سارا: «إنني أعرفهم جيدًا، فقد وُلدتُ في الهند.»

اعتدل الرجل الهندي في جلسته فجأة حتى إن سارا فزعت لحظة.

وقال: «سلها أنت يا كارميشيل، فأنا لا أستطيع.»

كان والد أسرة لارج العطوف يعرف كيف يسأل الفتيات الصغيرات. ولأن سارا كانت تحب سرد القصص، أفصحت في دقائق معدودات بكل شيء عن نفسها؛ بدءًا من الخسارة التي مُني بها والدها في مناجم الماس بسبب صديق خذله ثم ولَّى الأدبار، ووصولًا إلى إجبارها على العمل خادمة في المطبخ في مدرسة الآنسة منشن الداخلية. وعندئذ وصلت إلى الفصل الأخير من قصتها؛ وهو السحر الذي أنقذ حياتها.

قال الرجل الهندي بصوت واهن: «ما اسم والدك؟»

قالت سارا في فخر: «كابتن رالف كرو.»

لهث الهندي العليل قائلًا: «كارميشيل! إنها الطفلة!» ولحظة بدا أن كاريسفورد السقيم سيخرّ مغشيًّا عليه، فاضطر رام داس أن يهرع إلى خارج الغرفة ليحضر زجاجة النشادر التي وضعها تحت أنفه ليعيده إلى الوعي.

سألت سارا في خجل: «أي طفلة أنا؟»

تكلم السيد كارميشيل في هدوء حتى لا يروعها.

– «السيد كاريسفورد هو صديق والدك، لكنه لم يخن والدك ولم يخسر أمواله. بل ظنَّ فقط أنه مُني بالخسارة لأنه كان مريضًا للغاية إثر إصابته بالحمى الدماغية. وفي الوقت الذي تعافى فيه، كان والدك قد مات، ومنذ ذلك الحين والسيد كاريسفورد يبحث عنكِ. لقد بحث عنكِ في كل أنحاء أوروبا — في فرنسا وموسكو — وأنتِ هنا طيلة الوقت!»

أكملت سارا كلامه: «أجل، أنا هنا طيلة عامين في المدرسة المجاورة.» لم تستطع سارا أن تصدق كم طال انتظارها. وعندئذ راودتها فكرة فقالت له: «انتظر لحظة من فضلك، هل رام داس هو من جلب الأشياء إلى غرفتي عبر السطح؟»

أجابتها جانيت: «أجل! لقد كان السيد كاريسفورد صديقك الخفي الثري.»

طوَّقت سارا بذراعيها النحيفين الرجل الهندي وعانقته بكل ما أُوتيت من قوة.

قال كارميشيل في سعادة: «هذا هو الدواء الذي يحتاجه صديقي.»

وفجأة جاءت الآنسة منشن مندفعة إلى داخل الغرفة وخلفها إحدى الخادمات تلتمس العذر من الجميع؛ فقد رأت إحدى التلميذات سارا وهي تدخل إلى المنزل المجاور.

نهضت سارا من مكانها وقد ازداد وجهها شحوبًا، لكن السيد كاريسفورد وضع يده على رأسها ليهدئ من روعها.

قالت الآنسة منشن في ضجر: «آسفة على إزعاجكم، أنا الآنسة منشن مديرة مدرسة الفتيات الداخلية المجاورة. أعتذر بشدة عن الإزعاج الذي صدر عن هذه الطفلة.» ثم التفتت إلى سارا وقالت: «وأنتِ، عودي إلى المنزل في الحال! سوف ينزل بكِ أشد العقاب.»

لكن الرجل الهندي أمسك سارا بجانبه، وقال: «لن تذهب إلى أي مكان. إنها في منزلها الآن.»

ارتدَّت الآنسة منشن إلى الوراء في ذهول، ثم قالت لاهثة: «ماذا تعني؟»

لم يشأ السيد كاريسفورد أن يضيع المزيد من الوقت مع الآنسة منشن.

وعندئذ روى السيد كارميشيل القصة بأكملها؛ وأخبرها بأن كاريسفورد كان شريك كابتن كرو في مشروعه التجاري في مناجم الماس، وشرح لها كيف أن الثروة التي ظُن أنها فُقدت لم تعد فحسب وإنما عادت أضعافًا مضاعفة.

والآن ستئول جميعها إلى سارا.

وكانت الآنسة منشن، التي تفتقر إلى الذكاء، حمقاء للغاية حتى إنها سعت للقيام بمحاولة أخيرة من أجل الاستحواذ على ثروة سارا.

قالت الآنسة منشن: «لقد ترك كابتن كرو ابنته تحت رعايتي. ولن أسمح لها بالرحيل، سوف يقف القانون في صفي. وإذا مكثَتْ هنا، فلن أسمح لها برؤية صديقاتها مجددًا!»

صحح كاريسفورد كلامها: «القانون سيقف في صف سارا. ولا أظن أن آباء صديقات الآنسة سارا كرو سوف يرفضون دعوتها لهم لزيارتها في منزل حاضنها الجديد.»

ارتاعت الآنسة منشن؛ إذ كانت تعلم أن السيد كاريسفورد على صواب. ومن عساه أن يمانع في أن تلعب ابنته مع الوريثة المستقبلية لمثل هذه الثروة الهائلة؟ وهكذا بعد أن انحنت على نحو أخرق وهي تدمدم إلى نفسها، تسللت إلى الخارج.

وعندما وصلت منزلها، كانت الآنسة أميليا في انتظارها وقد جن جنونها.

انفجرت الآنسة أميليا في شجاعة غير معهودة: «لقد فاض الكيل. عادة ما كنت أفكر في أنكِ تعاملين سارا معاملة سيئة، لكنني لم أعترض قط. كانت سارا شجاعة بارَّة، وكانت ستجازيكِ عن أي معروف تصنعينه معها. لكنكِ لم تقدمي لها أي معروف قط، أليس كذلك؟ أنتِ امرأة أنانية متحجرة الفؤاد!»

قالت الآنسة منشن وهي تلهث: «أميليا!»

استرسلت الآنسة أميليا: «ومع ذلك كانت تتصرف دائمًا كأنها أميرة صغيرة بغض النظر عن سوء معاملتنا لها. والآن قد فقدِتها، وسوف تستحوذ عليها وعلى أموالها مدرسة أخرى. والأدهى من كل ذلك أنهم سيخبرون الجميع عن معاملتنا لها. وسوف يعرفون بأمر ملابسها الخفيفة البالية والفتات الذي كنا نرميه لها، والعمل الشاق الذي كنا نضعه على عاتقها. إذا تركت كل تلميذاتنا المدرسة وفقدنا كل شيء، فنحن نستحق ذلك عن جدارة!»

لم تعرف الآنسة منشن بم تجيبها، فكان صمتها اعترافًا منها بأن الآنسة أميليا على حق. والحقيقة أنه منذ ذلك الحين باتت الآنسة منشن تخشى أختها.

برحيل سارا أصبحت إرمنجارد بدورها راوية القصص؛ لقد عرفت بكل ما حدث من الخطاب المطول الذي بعثته سارا إليها.

أخبرت الفتيات الأخريات: «كانت هناك مناجم ماس يعج كل واحد منها بملايين الماسات. والآن ستصير سارا أميرة أكثر من ذي قبل بكثير! أرأيتن، كما كانت تتخيل بالضبط!»

لم تكن سارا قد كتبت إلى بيكي بعد، لكن بيكي سمعت مصادفة بحديث الفتيات الأخريات. ومع أنها كانت في قمة السعادة من أجل سارا، خشيت من أن يفارقها السحر الموجود في حياتها برحيل سارا.

وعندما بلغت درجات السلم الأخيرة المؤدية إلى غرفة سارا القديمة، توقفت وأخذت تفكر في أنه لن توجد نيران في المدفأة الليلة، ولا مصابيح وردية، ولا عشاء، ولا أميرة تروي قصصًا خيالية رائعة.

لكنها أقرت بأنها لا بد أن تواجه الواقع، ثم حبست دموعها، ودفعت الباب.

كانت بيكي محقة في شيء واحد فحسب؛ لم تكن هناك أميرة، لكن كانت هناك مصابيح وردية، وعشاء، ورجل داكن البشرة يعصب رأسه بعمامة بيضاء ويبتسم لها.

قال رام داس: «بيكي، سارا لم تنساكِ. لقد أخبرت السيد كاريسفورد بكل شيء، وهو يدعوكِ أن تأتي إليه غدًا، سوف تصبحين وصيفة الآنسة سارا.» ثم لوح بيديه إلى كل الأشياء الجميلة التي كان قد جلبها على مدى الأسابيع الماضية، وقال: «الليلة سوف أعيد كل هذه الأشياء إلى بيتي عبر السطح.»

وبعدها انحنى لها في احترام وتسلل عائدًا على ضوء السماء. عرفت بيكي من خلال خفة حركته ورشاقته كيف أنه تسلل إلى هنا كثيرًا من قبل.

وما أشد السعادة التي كانت تغمر أطفال أسرة لارج! فالصعاب والمغامرات التي مرت بها سارا جعلتها محل اهتمام الجميع. أراد الجميع سماع ما حدث لها مرارًا وتكرارًا، وكانت قصتهم المفضلة هي قصة المأدبة الملكية والحلم الذي اتضح أنه حقيقة.

ابتسم الرجل الهندي الذي كان يجلس إلى جانب سارا بجوار المدفأة؛ إذ كان هذا هو الجزء المفضل لديه من القصة أيضًا.

قالت سارا: «أنا في قمة السرور، أنا في قمة السرور أنك كنت صديقي الخفي!»

ربطت بينهما صداقة قوية، وبالطبع لم تعوضها هذه الصداقة عن فقدان والدها، لكنها كانت أفضل شيء بعده. وبدا أن سارا والسيد كاريسفورد متناغمان معًا. ومثلما كان والدها يفعل تمامًا؛ سُر السيد كاريسفورد بأن يهبها الأشياء ويعد لها المفاجآت السارة. وقد رأى أنه لا خوف من فساد أخلاقها من التدليل المفرط، لا سيما بعد الأحداث المروعة التي تعرضت لها.

وقد كانت سارا عند حسن ظنه بالفعل؛ إذ أخبرته بكل جرأة عن خطة تحتاج إلى مساعدته فيها.

سألها: «وما هي أيتها الأميرة؟ كيف لي أن أساعدك؟»

أخبرته سارا عن المرأة في متجر بيع المخبوزات، والشحَّاذة الصغيرة الجائعة التي تجوب الشوارع، وطلبت منه: «إذا كنت أملك وفرة من المال، فهل يمكنني أن أخبر هذه المرأة أنه في أيام البرد القارس يمكنها أن تطعم كل الأطفال الشحَّاذين الذين يتضورون جوعًا، ثم ترسل الفواتير إليّ؟»

وافق الرجل الهندي، وقال: «سوف نعد العدة لهذا الأمر صباح الغد.» وتعهَّد الرجل بينه وبين نفسه أن يسدد كل الفواتير بالفعل.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانت الآنسة منشن تنظر بمرارة عبر النافذة، صعدت سارا إلى عربة أسرة لارج متدثرة بمعطف جديد من الفرو. وفي هذا اليوم، نفذت سارا

أولى خططها المتعددة لمساعدة الآخرين. لقد ذاقت «السيدة الصغيرة» الكثير من الحرمان والحزن، لكنها اجتازتها وهي تعرف أن العالم لا يزال يعج بالسحر.

وأدركت سارا أن هذه ليست سوى بداية رحلة حياة جديدة رائعة.